الفصل الرابع

إمبراطورية العرب في أفريقيا

دخل العرب مصر عام ٦٣٩. ومع بدء القرن الثاني استولى العرب على شمالي أفريقيا ثم بدأوا الزحف جنوبي أوروبا– ولم تمض بضعة قرون حتى أصبحت شعوب تلك المنطقة جزءًا من العالم العربي الجديد يدينون بدين الإسلام وينهلون من ثقافته.

وكان غزو العرب منذ القرن السابع بدءًا لاندفاع جموع العرب إلى البلاد المجاورة أدى ذلك إلى ازدحام السكان وبعد فترة أصبحت الصحراء تضيق برجالها وقبائلها التي شحنها الدين الجديد بالطاقات والحيوية، فاندفعوا في حماس خارج الصحراء ينشرون الدين الإسلامي.

كانت الدعوى التي دعوا إليها لا تخرج عن بضع كلمات دعاهم إليها مُحَمَّد ﷺ وكان لها أثرها العميق في نفوس العرب وفي شخصيتهم. كما كان لها أثرها البعيد في تاريخ العالم.

تلك الدعوى التي جمع بها مُحَمَّد قبائل العرب المشتتة وجمع بها النفوس المفككة، وهي إلى جانب ذلك ركن الإسلام وأساس عقيدة المسلمين (لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله). فقد كان العرب أعداء على شفا حفرة من النار فألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانًا. قرآن مُنزل من عند الله يهدي به إلى الرشد وليخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

وبعد وفاة الرسول ﷺ عام ٦٣٢، بدأ المسلمون فتوحاتهم في دولتي الروم والفرس ووجد المحاربون العرب أنهم من القوة والشجاعة بحيث يهزمون أقوى تجمعات عسكرية أمكن حشدها ضدهم. فقد كانت جيوش الروم والفرس تفوق المسلمين عددًا وعدة ومقدرة وتنظيمًا. كل ذلك كان يذوب ويتلاشى أمام إيمان المسلمين وشجاعتهم التي خلفها فيهم الدين الإسلامي. وعلى الرغم من طول مواصلاتهم وبُعد خطوط الجيوش عن بلادهم، إلا أنهم ظلوا يحكمون باسم الله إذ كانوا يؤمنون بأن الجهاد عبادة كالصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج والإيمان بالله ورسوله.

وصل العرب شرقًا إلى الهند وغربًا بدأ العرب يتجهون إلى مصر للقضاء على فلول الروم التي كان المدد يأتيها من ميناء الإسكندرية.

واستطاع عمرو بن العاص أن يهزم الروم وأبرم معاهدة مع أقباط مصر الذين قبلوا دفع الجزية مقابل تأمينهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم. وفي عام ٦٤١ سقط حصن نابليون أقوى حصون الروم المنيعة عند رأس الدلتا. وفي العام التالي جلا الروم عن مدينة الإسكندرية تلك المدينة العظيمة التي بقيت عاصمة لمصر ألف سنة وبضع سنوات.

ولما كان العرب لا يحبون البحر، فقد أنشأوا عاصمتهم في الفسطاط بالقرب من بابليون ثم أعادوا إقامة حدود الجنوب التاريخية عند الشلال الأول في النيل وأقاموا حامية أسوان ضد غارات النوبيين. وفي سنة ٦٥١ أرسلوا بعثة اكتشافية إلى بلاد النوبة وهدموا عاصمتها الشمالية في دنقلة ثم أبرموا معاهدة مع النوبيين تعهدت فيها بلاد النوبة بإرسال الذهب لمصر

مقابل حماية العرب لهم وتأمينهم وإمدادهم بالمؤن والخيول والأقمشة (معاهدة تبادل تجاري بين البلدين). وبقي هذا الاتفاق ساري المفعول زهاء ستة قرون.

أخذ العرب بعد ذلك يتجهون صوب بلاد المغرب وكان تقدم العرب محفوفًا بالمخاطر إذ ما زال للروم بقية على طول الساحل، كما اكتشف العرب أن طبيعة البربر تختلف عن طبائع المصريين حيث كانت طبيعة البربر عدائية دائمًا وواجه العرب عدوًّا لا يقل عنهم ضراوة وقدرة على الحركة وهم البدو.

وفي سنة ٦٧٠ أنشأ عقبة بن نافع مدينة قيروان في جنوبي تونس كقاعدة للزحف منها وللعمليات الحربية، ولكن من عام ٦٨١ إلى عام ٦٨٣ عندما زحف صوب الغرب وقع هو ورجاله في كمين وفقدوا مدينة قيروان فترة من الزمن، وعانى العرب طويلًا عندما نزلت وحدات الروم على الساحل لقطع الطريق بينهم وبين مصر. ولكن ما أن انتهى القرن السابع حتى دحر العرب البربر والروم، وبمعاونة أسطول[١] العرب البحري استولوا على كارتيج وأنشأ العرب بدلًا منها مدينة تونس ثم تجمعت فلول البربر في الجبال تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة وهبطوا نحو السهول وقامت معركة مريرة قاسية بينهم وبين العرب انتهت بانتصار العرب ولم تدن أفريقيا لهم إلا في سنة ٧٠٥.

---

(١) ظهرت حاجة العرب إلى إنشاء أسطول بحرى في عام ٦٤٥ عندما وجدوا أن سيطرة الروم على البحر قد مكنتهم من استعادة الإسكندرية لفترة بسيطة.

ثم بدأت دولة العرب تضعف، فبعد أن كانت مدفوعة بقوة الإسلام استقرت الأمور ونعم العرب بالرفاهية وعندئذ بدأت الفرقة القبلية ونعرة التفاخر تظهران من جديد. وكان الإسلام قد قضى عليهما فانقسم العرب على أنفسهم؛ فبعد وفاة الرسول جاء من بعده الخلفاء الراشدون وقتل ثالثهم عثمان بن عفان إذ كان ضعيفًا ثم جاء من بعده علي بن أبي طالب الذي عارضه معاوية حاكم سوريا، وفي سنة ٦٥٧ تمكن معاوية من خديعة علي في التحكيم، ومنذ سنة ٦٥٩ أصبح معاوية الخليفة وإمام دولة بني أُمية التي ظلت حاكمة للإسلام من سوريا حتى سنة ٧٥٠.

ثم كان انقسام المسلمين إلى شيعة وخوارج، فالشيعة هم أتباع الإمام علي ومؤيديه ومعارضي بني أمية. كما كانوا يؤمنون بأن أبناء علي وفاطمة هم أولى بالإمامة بعد الرسول. ومن هنا منشأ العلويين والفاطميين.

وترتب على انتصار الأمويين أن أخذت الشيعة تعمل في الخفاء وقد تطرف بعضهم وذهب بعيدا في معتقداته. أما الخوارج، فهم الانفصاليون وإن كانوا في الأصل من مؤيدي الإمام علي، إلا أنهم خرجوا عليه لقبوله فكرة التحكيم. إذ ما كان يجب على الإمام علي بن أبي طالب أن يقبله معارضًا بذلك إرادة الله في خلافته. وعلى ذلك، فالخوارج يمثلون التشدد الذي قضى عليه الإسلام ونهى عنه.

وفي منتصف القرن الثامن، مرت بالعرب أزمة قاسية قضت على حكم الأمويين وحل محلهم العباسيون الذين لم يحكموا من دمشق، بل حكموا من عاصمة أخرى هي بغداد ووصل العباسيون بالإمبراطورية إلى

أوج مجدها وعظمة حضارتها ورفعة شأنها. ولكن لم تكن السلطة أو الحكم في أيدي العرب بل في أيدي جنود محترفين ورجال إدارة كانوا يختارون من بين عبيد الخلفاء الذين كانوا يستجلبون من تركيا.

بدأت الولايات العربية في الخروج على الخليفة في بغداد، ولم تكن أسبانيا ولاية عباسية في يوم من الأيام بل كان يتولى الحكم فيها حكومة أموية مستقلة منذ سنة ٧٥٦. كما استغل البربر في بلاد المغرب الفرقة التي وقعت بين المسلمين فأصبح عدد كبير من القبائل التي على الحدود من رعاة وتجار من الخوارج، وأمكن بذلك أن يكونوا مسلمين ومستقلين عن أي سلطة خارجية. وفي جنوبي مراكش وتونس، تطاولت جماعات الخوارج واختاروا لاجئًا يُدعى إدريس بن عبد الله إمامًا في أعقاب عام ٧٨٨ الذي أنشأ لنفسه دولة في غرب بلاد المغرب. وبالرغم من أن هذه الدولة لم تدم طويلًا ولم يتمكن الإدريسيون من إقامة أسرة حاكمة إلا في الأربعين سنة التي حكمها الإدريسيون، فإنهم أنشأوا لمراكش أول عاصمة لها وهي مدينة (فيز) ووضعوا نواة دولة المغرب المتحدة.

أما التغيرات السياسية في أفريقيا ومصر فلم تكن بمثل هذا العنف؛ إذ كان الوضع في مصر معقدًا لأن الحكام كانوا من الأتراك أصحاب الحظوة في بلاط الخليفة. وفي نهاية القرن التاسع، سئم الحكام المحظوظون الذين كانوا يعينون لحكم مصر توصيل فائض الدخل إلى أسيادهم في بغداد، فاستولوا على هذا الفائض وأقاموا بها القصور الضخمة في مدينة العسكر بجوار الفسطاط. كما جهزوا جيوشًا من الأتراك والعبيد ليقيموا لأنفسهم إمبراطورية في سوريا والحجاز وليقاوموا بها جيوش المماليك التي كان يرسلها

الخليفة من بغداد، وفي عام ٩٣٥ انسلخت مصر من حكم العباسيين. وليس معنى ذلك أن الشعب المصري استقل، بل ظل خاضعًا لحكام غرباء استنفدوا خيرات بلاده ومواردها للمحافظة على حكمهم ضد التهديد الخارجي من آسيا وضد أطماع منافسيهم في الحكم والحاقدين عليهم. ولكن هؤلاء الحكام فشلوا في إقامة نظام قادر على البقاء في مواجهة أطماع الوزراء وقواد الجيوش من العبيد.

وعلى الرغم من أن غزو العرب لشمالي أفريقيا لم يدم كإمبراطورية لمدة طويلة، فإنهم حققوا تغيرًا ملحوظًا في المجتمع، فقد انهارت المسيحية كحضارة للبحر المتوسط على الرغم من العظمة التي كانت عليها أمام الغزو الإسلامي. أما في مصر، فقد بقيت المسيحية دينًا للأقلية يعيشون جنبًا إلى جنب مع المسلمين في دولة واحدة وسبب انهيار المسيحية في المغرب يرجع إلى أن قبائل البربر كانت تعتبر المسيحية دينًا محليًّا. إلى جانب الاضطهاد الديني الذي لاقاه المسيحيون على أيد كنيسة روما ومن قبائل الفاندال ومن الروم المتشددين.

أما في مصر، فإن الشعب تعود على عدم التنافر أو التفكك منذ حكم اليونان، فأصبحت الكنيسة القبطية جزءًا لا يتجزأ من الحياة العامة ومن خلالها جاءت اللغة الوطنية المنحدرة من اللغة المصرية القديمة، ولفظ قبطي مرادف لكلمة مصري. وعلى الرغم من أن الكنيسة القبطية كانت أفقر وأقل في الانتفاع الفكري من كنيسة الروم، فإن الكنيسة القبطية هي التي بقيت بعد الفتح الإسلامي أما كنيسة الروم فقد اختفت. وإذا كانت غالبية المصريين من المسلمين، فإن ذلك لا يرجع إلى الضغط عليهم أو

الإكراه بل لانهيار الكنيسة. ولذلك اندمج الأقباط في النظام الجديد.

وأثناء الحكم العباسي عندما أصبح لفظ عربي لا يدل على أن يكون من الغزاة الفاتحين، اندمجت غالبية الأقباط دون أن يشعروا مع العرب، فكونوا مصر الحديثة يتحدثون اللغة العربية ويدينون بالإسلام.

ولما كان العرب أقرب إلى البربر في شمالي أفريقيا، سواء في اللغة أو الشكل من اليونان والرومان، تمكنوا من جمعهم في الحضارة الإسلامية التي أصبحت عميقة الجذور وأكثر قدرة على الانتشار صوب الجنوب من حضارة البحر المتوسط.